

الفصل الثاني

الزنادقة في عصر العباسيين

قلنا أن الزنادقة بمعانيها المختلفة قد راجت وانتشرت انتشاراً واسعاً خلال هذا العصر ، وكان للخلفاء العباسيين موقفهم تجاه الزنادقة على اختلاف أشكالهم ، ولم يكن موقف أو سياسة الخلفاء العباسيين تجاه الزنادقة واحداً بل كانت تتفاوت هذه السياسة من خليفة لآخر ، على حسب ميولهم وسياستهم كما كانت سياسة الخلفاء معهم مرتبطة بالأحوال الداخلية للدولة الإسلامية من حيث الاستقرار أو عدمه ، ولهذا اختلفت سياسة الخلفاء العباسيين مع الزنادقة من فترة لأخرى ، وسوف نفرّد كل خليفة بحديث مستقل .

أولاً. الزنادقة في عهد السفاح (١٣٢-١٣٦هـ) :

يعتبر عصر السفاح بداية مرحلة جديدة من مراحل تكوين الدولة الإسلامية وهي مرحلة من الصعوبة بمكان بسبب تدهور أحوال البلاد على أثر سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية ، وتولى أبو العباس السفاح حكم البلاد وهي تموج بالفتن والاضطرابات وتشتعل بالفتن والثورات ، ولهذا تطلبت هذه الفترة من العباسيين فرض القوة والسيطرة لكي تحكم سيطرتها على البلاد ، ولهذا نرى أول حلفائها يخطب في الناس ويختم خطبته بنعت نفسه في أول خطبة خطبها بأنه السفاح المبيح والشائر المبير^(١) نظراً لما قام به من سفك دماء الأمويين وغيرهم من الخارجين على الدولة خلال تلك الفترة ، ويؤكد الإمام السيوطي أن السفاح كان سريعاً إلى سفك الدماء وأتبعه في ذلك عماله في المشرق والمغرب وكان مع ذلك جواداً بالمال^(٢) .

ومن هنا نجد أن المصادر لم تشر إلى وجود زنادقة في عصره أو إلى

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ، وابن الأثير - الكامل - ٥٧٧/٤ ، والسيوطي - تاريخ الخلفاء

ص ٢٥٧ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٩ .

محاربتهم ، ولعل هذا في نظرنا يرجع إلى صعوبة الفترة التي كانت تمر بها البلاد وانصراف الخليفة إلى إرساء دعائم الدولة الناهضة وهو في أشد الحاجة إلى تأليف القلوب وجمع الصف وتوحيد القوة المعادية له واستمالة الفرس الذين ساعدوهم في إقامة الدولة إلى جانبهم ليستعين بهم في تثبيت أركان الدولة ، ومن ثم فلم يظهر الفرس أى عداوة للعباسيين ولم نسمع عن قيامهم بحركات هدامة ضد الدولة في عصر السفاح .

ويصرح بعض الباحثين بوجود زنادقة في عصر السفاح ولكن الخليفة غفل عنهم وتهاون في أمرهم نظراً لما للفرس من الفضل والجهد في نجاح دعوتهم . ومن أدلة إغفاله إياهم عدم تعرضه بالعقاب لمشاهير الزنادقة الذين كانوا يعملون على تشويه الدين عن طريق الأدب والحكمة والشعر مثل الحمادين الثلاثة حماد الروية وحماد عجرد وحماد الزبيرقان وابن المقفع وبشار بن برد^(١) .

ونحن نرى أن اغفاله لأمثال هؤلاء لم يكن عن عمد منه بل لعدم وجود الأدلة التي تشهد على إدانتهم وإقامة الحجة عليهم والانتهاج مع عدم توافر الأدلة إدعاء لا قيمة له ، هذا بالإضافة إلى عدم جهرهم بالزندقة وإخفاءهم لها دعاءه إلى تركهم .

ثانياً- الزنادقة في عصر المنصور (١٣٦-١٥٨ م) :

أما في عهد المنصور فنرى أن الزنادقة قد ظهوروا بصورة غير واضحة على الساحة ولاحت في الأفق القريب رزائلهم وفساد دينهم ولكنهم كانوا قلة ناشئة بحيث أنها لم تمثل خطراً على العباسيين ولم تلفت أنظارهم ، ولهذا لم يوجه المنصور عنايته أو اهتمامه بهم ولم يصرف جهوده إلى اضطهادهم وإنما اكتفى بوضع كتب لكشف شبهاتهم وإبطال مزاعمهم الكاذبة^(٢) ، ولكننا نلمح في وصيته لابنه المهدي ذكراً للزنادقة والملحدون حيث يأمره بالشدة عليهم فيقول في وصيته : واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أنه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في

(١) طه حسن حماد- الزنادقة في العصر العباسي ص ١٤٦ .

(٢) الإمام محمد عبده - رسالة التوحيد ص ١٥ .

الأرض فساداً مع ما ذخر له عنده من العذاب فقال سبحانه ﴿ إِنَّمَا حِزَاءُ
الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١).

فالسُلطان يابني حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه القيم فاحفظه وحصنه
وذبح عنه وأوقع بالملاحدين فيه وأقمع المارقين منه واقتل الخارجين عنه بالعقاب
ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن واحكم بالعدل ولا تشطط (٢).

ولما كانت الزنادقة مبغضة إلى نفوس المسلمين ولاسيما المؤمنين منهم فقد
أصبح كل من يقترب من الزنادقة أو يخالطهم منبوذاً ومكروهاً من طبقات
المجتمع الإسلامي كله، ولعل هذا يفسر لنا عمل الخليفة المنصور مع
محمد بن أبي العباس عندما أراد أن يبغضه إلى الناس ويفقدهم الثقة فيه لأنه
كان مرشحاً للخلافة بعد المنصور فأحاطه بالزنادقة والمجان وكان فيهم
حماد عجرد وكان محمد بن العباس مرشحاً للخلافة بعد المنصور، بينما
كان المنصور يرغب في ترشيح ابنه المهدي.

ثالثاً. في عصر المهدي (١٥٨، ١٦٩ هـ) :

أما في عهد المهدي فقد ظهر الزنادقة بصورة واضحة وظهرت نواياهم
السيئة في السعي إلى إفساد العقيدة الإسلامية وتشويهها عند عامة الناس
وراحوا ينفثون سمومهم بين الناس، فأخذ المهدي بوصية أبيه المنصور
وطبقها أحسن تطبيق فوجه جهوده إلى القضاء على الزنادقة فتبعهم في
كل مكان وقعد لهم في كل مرصد حتى أفنى منهم خلقاً كثيراً (٣).

ويصفه الفخري وصفاً دقيقاً فيقول عنه (وكان المهدي فظناً كريماً شديداً
على أهل الإلحاد والزندقة، لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم) (٤).

(١) سورة المائدة آية : ٣٣ .

(٢) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ٨ / ١٠٥ ، ولم الأثير - الكامل ٥ / ٨٦ ، وكرد علي - الحضارة
العربية ٢ / ١٣١ .

(٣) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٢٧١ . (٤) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٧٩ .

وكان المهدي على الرغم من تنكيهه بالزنداقه والبحث عنهم كان لا يأخذ بالظن في الاتهام بالزنداقه وإنما كان يقيم البينة على من رمى بها فيحاوره ثم يستابه ، فإن تاب تركه وإلا ضرب عنقه .

فيذكر اليعقوبي أنه ألح في طلب الزنادقة وقتلهم حتى قتل خلقاً كثيراً فبلغه أن صالح بن أبي عبيد الله زنديق فأحضره ، فلما صح عنده أمره أن يتوب فقال لا رغبة عما أنا عليه ولا حاجة في غيره فأمر بضرب عنقه (١) .

كما أتى بصالح بن عبد القدوس فاستابه فتاب فلما خرج من عنده ذكر له قوله :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في الثرى رسمه
فأمر برده وضرب عنقه (٢) .

ومن مظاهر اهتمام المهدي في الجد والبحث عن الزنادقة واستأصل شأفتهم أنه أنشأ جهة مختصة وأوكل إليها مهمة البحث عن الزنادقة في أي مكان كانوا ، وكان لهم رئيس يسمى صاحب الزنادقة ، وقد صرح الطبري بأن المهدي جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم وولى أمرهم عمر الكلواذي ، فلما توفي ولى مكانه حمزوية محمد بن موسى وكان ذلك في عام ١٦٨ هـ (٣) .

وكما خصص المهدي إدارة للبحث عنهم في كل الآفاق فقد أوجد لهم حبساً خاصاً لا يجسون فيه مع غيرهم حتى لا يلتقون غيرهم أفكارهم ، كما خصص لهم رجالاً من أهل البحث من المتكلمين وأمرهم بتصنيف الكتب للرد على الملحدين (٤) .

وصفوة القول أن عمل المهدي تجاه الزنادقة في عصره تمثل في أمرين :

الأول : إنشاء إدارة مختصة بالبحث عنهم ومحاكمتهم .

الثاني تشكيل هيئة علمية من المتكلمين لمناظرتهم والرد عليهم .

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٨٠ . (٢) المصدر السابق ٢ / ٢٨١ .

(٣) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ٨ / ١٦٥ .

(٤) عبد المنعم ماجد - العصر العباسي الأول ١ / ١٦٦ . وأحمد أمين - ضحى الإسلام ١ / ١٤٥ .

وقد تجرد بالفعل كثير من العلماء للرد على الزنادقة ودحض شبهاتهم الواهية ، فالإمام أحمد بن حنبل ممن ناقش الزنادقة في آرائهم ورد عليهم وكذلك وأصل بن عطاء الذي درس كتبهم بدقة وتمحيص فوجدها أكاذيب ومزاعم وضلالات لا فائدة منها علمياً ولا دينياً^(١) .

ومع هذه العناية الفائقة والاهتمام البالغ في قمع الزنادقة واستأصل شأفتهم فقد وجدنا من الباحثين من يتهمه بالتستر على الزنادقة والتراخي معهم . ويرجع الباحث أسباب تغافل المهدي عن بعضهم ، إما لوجود عامل القرابة والصلة بينهم أو لاعتبارات سياسية تمليها عليه سياسة الدولة^(٢) .

وهو رأى نراه شديد الوطئة والتحامل على الخليفة المهدي وهو الخليفة الذي أجمع المؤرخون على حسن سيرته واعتدال سياسته مع الرعية ، فهو أول من جلس للمظالم من بنى العباس يقيم العدل بين المتظالمين وأول من أسر بترك المقاصير التي في جوامع الإسلام وقصر المنابر وصيرها على مقدار منبر الرسول ﷺ^(٣) .

فهو لم يتغافل عن الزنادقة أو تهاون معهم وإنما تركه لبعضهم يرجع إلى عدم ثبوت إدانتهم بهذه التهمة أو أن الشبهات قد حامت حولهم بدون دليل قاطع أو برهان ساطع فتركهم لحين توافر الأدلة وإقامة البينة عليهم .

رابعاً - المتهمون بالزندقة في عصره :

اتهم كثير من الشعراء والمجان في عصر الخليفة المهدي بالزندقة ، وأصبحت هذه التهمة متداولة على ألسنة العامة والخاصة ووسط المجالس والمنتديات ، ومن الحق أن نقول إن بعض المتهمين بها كانوا من الأبرياء الذين استبرءوا لدينهم وعرضهم وبعضهم كان زنديقاً بحق ، فالتهمة لا تثبت على صاحبها لمجرد اتهامه بل بعد إقامة الأدلة ووجود القرائن التي تدل على ذلك ، فالتهم بريء حتى تثبت إدانته .

ويعد بشار بن برد من الزنادقة المشهورين في عصر المهدي أو ممن اتهموا

(١) ابن الجوزي - تليس إيليس ص ١١١ ، وعبد المنعم ماجد - العصر العباسي الأول ١ / ١٦٧ .

(٢) طه حسن حماد - الزندقة في العصر العباسي ص ٦٧ .

(٣) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣ .

بالزندقة نتيجة أقوال خرجت منه أو أفعال صدرت عنه على سبيل الجحد أو الهزل فكان يصدر منه ما بين الحين والآخر أقوالاً تمس الدين من قريب أو بعيد وتدل على عدم صحة عقيدته ، فهو مهموز في عقيدته بسبب انتسابه إلى فرقة تسمى الكاملة^(١) كانت تكفر الصحابة بتركهم بيعة عليّ وكفروا عليّ بتركه قتالهم وقالوا كان يلزمه قتالهم كما يلزمه قتال أصحاب صفين^(٢) . وكان بشار الشاعر الأعمى على هذا المذهب ، وروى عنه أنه قيل له ماتقول في الصحابة ؟ قال : كفروا ، فقيل له : ما تقول في عليّ فتمثل قول الشاعر :

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا^(٣)
وكقوله الذي يدل على ميله إلى الإلحاد :

طبعت علي مافى غير مخير هوأى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيا^(٤)
ويذكر مؤرخى الملل والنحل .. أن بشار ممن قال بتكفير الصحابة بل أنه زاد فى ضلاله وغيه ففاق الكاملة بضاللتين :

الأولى : قوله برجعته إلى الدنيا قبل يوم القيامة كما ذهب إليه أصحاب الرجعة من الرافضة .

الثانية : قوله بتصويب إبليس فى تفضيل النار على الأرض واستدلوا على ذلك من شعره^(٥) .

فهو القائل :

والأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار^(٦)

(١) تنسب هذه الفرقة إلى أبي كامل رجل من الرافضة .

(٢) صفين - موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس كانت به موقعة صفين بين عليّ ومعاوية سنة ٣٧ هـ .

(٣) البغدادي - الفرق بين الفرق ص ٣٥ .

(٤) الأصفهاني - الأغاني ١٧٩/٣ .

(٥) البغدادي - الفرق بين الفرق ص ٣٥ .

(٦) الأصفهاني - الأغاني ١٣٦/٣ . وابن كثير - البداية والنهاية ١٥٢/١٠ .

وقد ردَّ عليه صفوان الأنصارى بقصيدة قال فيها :

زعمت أن النار أكرم عنصراً في الأرض تحيا في الحجارة والزند
ويخلق في أرجائها وأرومها أعاجيب لا تُحصى بخط ولا عقد
إلى أن قال :

فيا بن حليف الشؤم واللؤم والعمى وابعد خلق الله من طرق الرشيد
اتهجوا البابكر وتخلع بعده علياً وتغزو كل ذاك إلى برد
كأنك غضبان على الدين كله وطالب دخل لا يبيت على حقد
تواثب أقماراً وأنت مشوه وأقرب خلق الله من نسب القرد^(١)

فشخصية بشار بن برد متقلبة غير مستقرة على حال كثير التلون في ولائه وفي معاملته ، غير معتدل في الناحية المزاجية ، ثم هو بعد ذلك سريع التأثر بآثرابه ظريف يهش للظرف والظرفاء .

يقول عنه الأصفهاني : كان بشار كثير التلون في ولائه شديد الشغب والتعصب ، فتارة يتعصب للعرب وتارة يتبرأ من ولاء العرب ، فهو يقول :
أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم مولى العريب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعال ومن قریش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر^(٢)
ولهذا اختلف الباحثون من المستشرقين في زندقة بشار .

كما يعرف عن بشار أنه سليط اللسان كثير الهجاء وكان هجائه من أقزع ألوان الهجاء ، وكان إذا غضب استبد به غضبه إلى ارتكاب حماقات قد لا يحمد عقباها ، وما أصدق ما قيل أقبح أنواع الغضب غضب الأعمى .
كان بشار كثير الهجاء لمن عاداه ، فقد ظل على وفائه مع وزير المهدي يعقوب بن داود ، فلما تغيرت الأمور وساءت العلاقة بينهما سارع بشار إلى هجائه والانتقاص منه ، فعندما تولى صالح بن داود أخو الوزير يعقوب أمر

(١) البغدادي - الفرق بين الفرق ص ٣٥ .

(٢) الأغاني - ٣ / ١٣٣ .

البصرة قال بشار :

همو حملوا فوق المنابر صالحاً أخاك فضجت من أخيك المنابر (١)

بل وشرع في هجاء الوزير نفسه حيث قال فيه :

بنى أمية هبوا طال نومكموا إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود (٢)

مما أوغر عليه صدر يعقوب بن داود ووشى به عند الخليفة .

ويذكر الأصفهاني أنه هجا الخليفة نفسه بشعر نال فيه من شرفه

وعرضه مما قال :

خليفة يزني بعماته ويلعب بالدبوق والصولجان

أبدلنا الله به غيره ودس موسى في حر الخيزران (٣)

عند ذلك أمر المهدي عبد الجبار صاحب الزنادقة أن يضرب حتى يموت (٤) .

ونظراً للتناقض الواضح في سلوك هذا الشاعر الفحل وفي حقيقة ما صدر

عنه وتحدث به فقد اختلف الباحثون في زندقته .

فالبعض ذهب إلى القول بأنه كان مثلاً للزندقة في عصره لأنه شعوبي

يحن إلى قومه ووطنه ويكره الإسلام (٥) .

بينما يذهب البعض الآخر إلى أنه كان من الطبقة الماجنة أو طبقة أحرار

الرأى .

ويذهب الأستاذ ماجد إلى أنه لم يكن زنديقاً زندقة علمية وإنما كان

فاسقاً ماجناً يشك في كل شيء (٦) .

وهو الرأى الذي نميل إليه ونستريح له ونرجح أن بشاراً كان ظريفاً لم

(١) ابن الأثير - الكامل ٥ / ١٤٥ .

(٢) المصدر السابق ٣ / ٢٣٨ ، وابن كثير - البداية والنهاية ١٠ / ١٤٨ .

(٣) الخيزران هي جارية من جوارى المهدي وهي أم ولديه موسى وهارون .

(٤) الأغاني ٣ / ٢٢٢ ، والطبري - تاريخ الرسل والملوك ٨ / ١٨٠ .

(٥) نيكلسون - تاريخ العرب الأدبي ص ٣٧٣ .

(٦) طه حماد - الزندقة في العصر العباسي الأول ص ٧٢ .

يقصد الزندقة ، فأنت عندما تقرأ الأغاني تجده مملوءاً بالفكاهة والظرف المأثور عنه ، فتحس أنك أمام ماجن مازح وليس أمام زنديق ملحد .

ومن ذلك ما ذكره صاحب الأغاني أن قوماً ما مروا ببشار وهم يحملون جنازة ويسرعون المشى بها ، فقال مالهم يسرعون أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم .

ومن هنا رمى بالزندقة لتهاونه في أمر دينه ..

ويروى عنه أنه كان ذات مرة ينادم المجان فقال لسعد بن القعقاع صديقه قد نسبنا الناس إلى الزندقة فهل لك أن تحج بنا حجة تنفى ذلك عنا .. قال نعم .. فاشترى بعيراً وركباه ، فلما وصلا إلى زارة^(١) استبعد المسافة فنزلا بها ومكثا هناك يشربان الخمر ويفسقان ، واتفقا على أن يظلا بهذا المكان حتى يفرغ الحجيج من قضاء الفريضة فإذا عادوا إلى بلادهم خرجنا إليهم بعد أن نجز رؤوسنا فلا يشك الناس أننا جئنا من الحج ، وقد كان فقد تلقاهم الناس بالبشر والترحاب كأنهما حاجين .

فأنشد سعد يقول :

ألم ترني وبشاراً حججنا وكان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبي سفر بعيد فمل بنا الطريق إلى زارة
فآب الناس قد حجوا وبروا وأبنا موقرين من الخسارة^(٢)

وفي هذا ما يشير إلى صحة ما ذهبنا إليه من أن بشاراً لم يتزندق زندقة علمية وإنما كان كثير التهاون في أمور دينه يشك في كل شيء حوله .

ومن رمى بالزندقة في عصر المهدي مطيع بن إلياس ، فكثيراً ما كان يسيء إلى الإسلام بكلامه وأفعاله ، يقول عنه الأصفهاني أنه كان ظريفاً خليعاً حلو العشرة مليح النادرة ماجناً متهماً في دينه بالزندقة^(٣) .

ويقال أنه كان يهوى الغلمان ويلوط بهم ويكذب وينافق مما كان سبباً في رميه بالزندقة .

(١) زارة - محلة بالكوفة كان يباع فيها الخمر - ياقوت الحموي ٣ / ١٣٨ .

(٢) الأصفهاني - الأغاني ٣ / ١٧٩ .

(٣) الأغاني ١٣ / ٢٨٠ .

ومما يؤيد وصفه بالزندقة أن ابنته شهدت عليه في أيام الرشيد أنه كان يعلمها دين الزنادقة^(١).

ولكن الحكم القاطع بأنه كان زنديقاً لم تتوفر له الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي تقطع بالدلالة على إحياده ، ويبدو أن إتيانه المنكرات واختلاطه بالزندقة المعاصرين له أمثال ابن المقفع وحماد وعجرد وحماد الراوية وغيرهم ثم ميوله الدنيئة إلى الغلمان والصبية بالإضافة إلى فسقه وقلة دينه كان من دواعي رميه بالزندقة .

وممن رمى بالزندقة خلال تلك الفترة صالح بن عبد القدوس وهو عربي المنبت عريق النسب ، كانت له مجالس وعظ بالبصرة^(٢) ، واشتهر بالتأليف والتصنيف ولكنه كان من جملة المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، وقد عده ابن النديم^(٣) من الرؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة وأن أكثر مصنفاة في نصرة الاثني^(٤) ومذاهب أهلها .

وقد تصدى لصالح بن عبد القدوس بعض علماء المعتزلة لما شاع أمره وانتشرت كتبه في نصرة الاثني حيث ناظره أبو الهزيل العلاف^(٥) ، فصالح كان يقول أن العالم من أصلين قديمين هما النور والظلمة وإنما امتزجا ، فقال له أبو الهزيل : فامتزاجهما أهو هما أم غيرهما ، قال : بل أقول هو هما فالزمه أن يكونا ممتزجين متباينين إذ لم يكن هناك معنى غيرهما ولم يرجع ذلك إلا إليهما فانقطع وأنشأ يقول :

أبا الهزيل جزاك الله من رجل فأنت حقاً لعمرى مفصل جدل^(٦)
ولما ذيع أمره وانتشر طلب الخليفة المهدي أن يحمل إليه فأحضر بين يدي الخليفة فقال للمهدي : علام تقتلني ؟ قال له على قولك :

(٤) المصدر السابق ١٣ / ٢٨٥ .

(٢) البصرة - إحدى مدن العراق العظيمة .

(٣) الفهرست ص ٤٥٨ .

(٤) يقصد بالاثني النار والظلمة ، حيث قال بهذا بعض المجوس وهم الثوية .

(٥) هو شيخ المعتزلة ، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء ، وكان

في الجدل ليس له نظير ، مات سنة ٢٢٧ هـ ، وقيل ٢٣٥ هـ .

(٦) ابن خلكان - وفيات الأعيان ٣٧ / ٥ .

رب سر كتمته فكأنى أخرس لسان عقل
فلو أنى أظهرت للناس دينى لم يكن لى فى غير حبس أكل
فقال صالح : لقد كنت زنديقاً ولكنى تبت ، فقال له : كيف وأنت القائل :
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رسمه
إذا ارعوى عاد إلى غيه كذا الصبى عاد إلى نكسه
ثم رفع المهدي سيفه وضربه بشدة فوق أمامه ثم دفن (١) .

كما رمى بالزندقة فى عهد المهدي يعقوب بن الفضل وابن داود بن على
وكان المهدي قد جاء بهما إلى مجلسه واجتمع بكل منهما على انفراد
وأقرهما بالزندقة فأقرا ، أما يعقوب فقد اعترف له بها وقال للمهدي
ولكنى لا أظهر ذلك للناس ولو قرضتى بالمقاريض (٢) .

وقد أمر المهدي بحبسهما ثم التفت إلى موسى الهادي وأمره ألا
ينظرهما مرة ثانية ، فمات ابن داود بن على فى الحبس فى حياة المهدي ، أما
يعقوب فقد ظل حتى تولى الهادي الخلافة ثم أمر أن يؤتى به من الحبس
ويوضع فى شوال - وتقعده عليه الرجال حتى يموت ففعل به مثلما أمر
الهادي (٣) .

ولكن ما العلة أن الخليفة المهدي لم يشرع فى قتلهما على الفور ولاسيما
بعد أن أقرا بالزندقة بين يديه .

والعلة فى ذلك أن كلا الرجلين يعقوب وابن داود من بنى هاشم هذا البيت
العريق الذى يعد من أشرف القبائل والبطون ، فخشى إن قتلها أن يترتب
على قتلها آثار غير محمودة فى نفوس بنى هاشم خاصة وفى نفوس
المسلمين بصفة عامة ، وخاصة أنهم لا يعلمون عن اعترافهما بالزندقة عند
الخليفة شيئاً ، ولهذا أسند مهمة التخلص منهما إلى الهادي الذى قام
بتنفيذ وصية أبيه على أكمل صورة .

(١) طه حسن حماد - الزندقة فى العصر العباسي الأول ص ١٨٠ .

(٢) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ٨ / ١٩٠ .

(٣) المصدر السابق ٨ / ١٩١ .

خامساً- الزنادقة في عصر الهادي:

كان للهدى كما رأينا شديد الاهتمام في البحث عن الزنادقة شديد التكيل بهم ، ولهذا وصى ابنه الهادي من بعده بعد أن عهد إليه بالأمر أن يشتد على هذه العصابة وهم الزنادقة وأن يقطع طبرهم حتى لا يبق منهم أحد ، فجد الهادي في طلبهم وقتل منهم خلقاً كثيراً (١) .

ويذكر الطبري وصية المهدي لابنه عندما قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه ثم قال يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجد لهذه العصابة (يعنى أصحاب ماتى) قتيها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتباب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للأخرة ثم تخرجهم إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجاً وتحويلاً ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد ذلك نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتتقدم من ضلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجردها فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإني رأيت جلك العباس فى المنام قلنتى يسيقين وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين فقال موسى : بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف (٢) .

وشرع الهادي فى تنفيذ وصية أبيه فتبع الزنادقة فى كل مكان حتى قتل منهم خلقاً كثيراً (٣) .

وفى عام ١٦٩ اشتد الهادي فى طلب الزنادقة فقتل منهم جماعة لا بأس بها فكان ممن قتل منهم يزيدان بن باذان كاتب يقطين وابنه على بن يقطين من أهل النهروان (٤) .

وكان يزيدان هذا من جملة الزنادقة الذين حاولوا فصل الدين عن عراه ،

(١) الإمام السوطي - تاريخ الخلفاء ص ٢٧٨ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٨ / ٢٢٠ .

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية ١٠ / ١٥٩ ، والبليخي - البدء والتاريخ ٢ / ٢١٠ .

(٤) النهروان - كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي .

ومن ذلك أنه نظر إلى الناس في موسم الحج وهم يطوفون فقال : ما أشبههم
ببقر (١) تدوس في البيدر (٢) .

فقال الشاعر فيه :

أيأ أمين الله في خلقه ووارث الكعبنة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر يشبه الكعبنة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سعوا حمراً تدوس البر والدوسر (٣)
وقال آخر :

قد مات ماني منذ اعصار وقد بدا يزدان بن ياذان
حج إلى البيت أبو خالد مخافة القتل أو العار
وود والله أبو خالد لو كانت بيت الله في النار
لا يقتل الحيات في دينه كفراً ولا العصفور في الدار
وليس يؤذى الفأر في حجره يقول روح الله في الفأر (٤)

وقد سارع الهادي إلى قتله ثم صلبه بعد ذلك .

ويذكر الطبري أن المهدي هبأ له ألف جزع (٥) لصلب الزنادقة عليها حتى
يراهم الناس ، وقال هذا في شهر كذا ومات بعد شهرين (٦) .

وخلف الهادي الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) الذي عرف بالتقوى والصلاح ..

يقول عنه ابن طباطبا : كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم
وكرمائهم ، كان يحج سنة ويغزو سنة ، كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة (٧) .
سار الرشيد في التنكيل بالزنادقة وقمعهم سيرة المهدي وأخيه الهادي ،

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ٨ / ١٩٠ . والبلخي - البدء والتاريخ ٢ / ٢٩٠ .

(٢) مكان تجمع القمح ونحوه بعد دراسته ويسمى الجرن .

(٣) الدوسر - نبت حبة الزوان الذي في الحنطة .

(٤) البلخي - البدء والتاريخ ٢ / ٢٩٠ .

(٥) الجزع هو ساق النخلة ونحوها . والجمع : أجزاء وجزوع . (المعجم الوجيز ص ٩٧) .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ٨ / ٢٢١ .

(٧) التخريري في الأدب السلطانية ص ١٩٣ .

فكان لا يقعد عن طلبهم ولا البحث عنهم حتى قتل منهم طائفة كثيرة (١).
وتشير القرائن التاريخية إلى أن الرشيد منذ تولى أمر الخلافة كان عازماً
على البطش بالزنادقة والتخلص منهم ، ففي عام ١٧٠ هـ بعد أن تولى الخلافة
أمر الرشيد بسهم ذوى القربى فقسم بين بنى هاشم بالسوية وأمن الخائف
ومن كان هارباً أو مستخفياً غير نذر من الزنادقة منهم يونس بن فروة ويزيد
ابن الفيض (٢).

ويحدثنا ابن النديم عن الزنادقة فى العصر العباسى فيذكر أن البرامكة
بأسرهم كانوا منهم إلا محمد بن خالد بن برمك ، والحق أن التصريح بزندق
البرامكة فى عهد الرشيد لم نرى له ذكر فى بطون المصادر الأخرى ، ويبدو
أن اتهام البرامكة بالزندقة يرجع إلى أصلهم القديم ، إذ كان برمك وأسرتة
يدينون بالمجوسية دين الفرس ، وكان برمك هذا من سدنة بيت النار ، فلما
ظهر الإسلام أسلم بعضهم وحسن إسلامه ، وقد أصبح البرامكة كعبة
الآمال وتشد إليهم الرحال .

يقول عنهم ابن طباطبا : اعلم أن هذه الدولة كانت غرة فى جبهة الدهر
وتاجاً على مفرق العصر ، ضربت بمكارمهم الأمثال وشدت إليهم الرحال (٣).
ومن رمى بالزندقة فى عهد الرشيد أبو هاشم الحميرى الذى كان يتبع
مذهب الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنفية (٤) ، وتزعم الكيسانية أن
محمد هذا محبوس بجبل رضوى إلى أن يؤذن له بالخروج ، واستدلوا على
ذلك بقوله :

ولكن وكل من فى الأرض فان بذا حكم الذى خلق الأناما (٥)

(١) ابن كثير - البداية والنهاية ١٠ / ١٦٣ .

(٢) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ٨ / ٢٣٤ - وابن كثير - البداية والنهاية ١٠ / ١٦٢ .

(٣) الفخري فى الآداب السلطانية ص ١٩٧ .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن على بن أبى طالب رضي الله عنه ، والحنفية أمه وهى خولة بنت جعفر بن
قيس ، وقيل : كانت من سبى اليمامة وصارت إلى على ، وقيل كانت أمه لبني حنيفة -
توفى عام ١٨١ ، وقيل ١٨٣ هـ ، ودفع بالبيع . (ابن خلكان - وفيات ٤ / ٨١) .

(٥) البغدادي - الفرق بين الفرق ص ٢٩ .

كما كان يقول بالرجعة وما يدل على ذلك ما أورده الأصفهاني أنه قال لرجل ذات يوم تعطيني ديناراً بمائة إلى الرجعة .. قال نعم إن وثقت لي أنك ترجع إنساناً فقد ترجع كلباً أو خنزيراً فيضيع مالي (١) .

كما اشتهر بالزندقة هشام بن الحكم وكان مولى لبني شيان ، ولكن بعد أن اشتهر أمره أصبح من أكبر رجال الشيعة في علم الكلام .

وقد ضل هشام بن الحكم ضلالاً بعيداً عندما قال بالتجسيم والتشبيه في حق الله سبحانه ، فزعم أن معبوده جسم ذو حد ونهاية وأنه طويل عريض عميق وأن طوله مثل عرضه وعرضه مثل عمقه .

كما زعم أيضاً أنه نور ساطع كالسيكة الصافية من الفضة والؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها ، وقال أنه ذو لون وطعم ورائحة وغير ذلك من الضلال والخرافات التي ذكرها الأئمة في الملل والنحل (٢) .

ويورد ابن قتيبة عنه بعض المواقف المنسوبة إليه ، فتجد في بعضها ما يدل على إسلامه مع قلة الدين ، وبعضها يدل على ضلاله وسفاهته ، فمثال الأول ما حكاه ابن قتيبة عن رجل ملحد جاء إلى هشام فقال له : أنا أقول بالاثنتين وقد عرفت إنصافك فلست أخاف مشاغبتك ، فقال له هشام : حفظك الله هل يقدر أحدهما أن يخلق شيئاً لا يستعين بصاحبه عليه ؟ قال نعم ، قال هشام : فما ترجو من الاثنتين واحد خلق كل شيء أصح لك ، فقال : لم يكلمني بهذا أحد قبلك (٣) .

أما ما يدل على ضلاله وسفاهته وزندقته أن رجلاً قال له ذات يوم : أترى الله عز وجل في فضله وكرمه وعدله كلفنا ما لا نطيق ثم يعذبنا ؟ فقال هشام قد والله فعل ولكننا لا نستطيع أن نتكلم (٤) .

وسواء قال هذا الكلام على سبيل التملح والفكاهة أو عن عقيدة وعزم فكلاهما يدل على استخفافه بأمور تتعلق بأصول العقيدة الصحيحة ، ومن ثم

(١) الأغاني ٢٣٦/٧ .

(٢) الشهرستاني - الملل والنحل ١/١١٨ .

(٣) عيون الأخبار ٢/١٥٤ .

(٤) المصدر السابق ٢/١٤٢ ، وابن عبد ربه - العقد الفريد ٢/١٣٢ .

تخرجه من دائرة الإسلام .. ويحكى عنه أيضاً قوله بين الله وبين الأجسام المحسوسة تشابه من بعض الوجوه ولولا ذلك ما دلت عليه (١) .
وعلى كل حال فإنه ظل على قيد الحياة يكابد آلامها لم تثبت عليه جريمة الزنادقة إلى أن وافته المنية عام ١٩٠ هـ .

الزنادقة في عهد الأمين (١٩٣-١٩٨ هـ)

أما عن الزنادقة في عهد الأمين فلم تفصح المصادر عن أى نوع من أنواع المصادمات أو الاضطهاد في عهده ، ولعل ذلك يرجع إلى انصراف جهود المهدي إلى تصفية الخلاف الذي وقع بينه وبين أخيه المأمون على الخلافة وهي الفتنة التي فرقت المسلمين وأضعفت قوتهم وقوضت كثيراً من معالم مدينة بغداد حاضرة الإسلام وكعبة العلوم والآداب .

وإن كان هذا لا يجزم جزماً تاماً بعدم وجود زنادقة خلال تلك الفترة ، حيث لا يخل عصر من عصور الخلفاء من وجودهم ولكن ظهورهم كان يقل ويكثر على حسب سياسة الخليفة ومدى تفرغه ، أو إنشغاله فيما يخص الدولة من الشؤون الداخلية أو الخارجية ، ولكن انعدام وجودهم تماماً في فترة من فترات العصر العباسي الأول أظنه أمراً من الصعوبة بمكان .

وعلى كل حال فإن العابثين بالآداب الاجتماعية والمستهترين بتعاليم الإسلام وقيمته تراهم في كل زمان ومكان ولا سيما الشعراء والمجان وأصحاب الأهواء ، ومن أشهر من رمى بالزنادقة في عصر الأمين أبو نواس الحسن بن هانئ أحد فحول شعراء العرب الذي تجرأ على أوامر الشرع الحكيم واستخف ببعض تعاليمه ، إلى جانب إتيانه المنكرات وارتكاب المعاصي والمنهيات ، فكان يعاقر الخمر ويمدح شاربها ويتغزل بالجوارى والغلمان ويقول فيهم الشعر الخليع الذي ينضح بالعهارة والدنس .

فأنت عندما تتصفح شعره وتاريخه وتطالع ديوانه وأقواله ترى فيها مزيجاً من الأقوال والأشعار وخليطاً من الطباع والأغيار ترى فيها الشعر الجد

(١) البغدادي - الفرق بين الفرق ص ٤١ ، والأشعري - مقالات الإسلاميين ١ / ١٢٥ تحقيق محمد

الملح الذي يشهد لقائله بالاعتدال في الذوق والأدب ، كما ترى فيها الشعر
الماجن الخليع الذي يشهد لقائله بالإسراف في الفجور والترف ، فهو إذاً
مختلف النزعات مزدوج الشخصية حاد الطباع ، تشعر بهذا التناقض كله
عندما تقرأ له شعره .

فأبو نواس كان من الندماء الذين يعاقرون الخمر ويخالطون شاربها
ويؤثرون مجالسهم على كل شيء ، ومن شعره في الخمر قوله :
الافاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر
وقوله :

اسقنيها يا ذفافة مزة (١) الطعم سلافه
ذل عندي من جفاها لرجاء أو مخافة
مثل ذلت وضاعت بعدها دون الخلفة (٢)

فلما رفع هذا الشعر إلى المهدي أمر بحبسه ثلاثة أشهر ثم دعا به وعنده
بنو هاشم وغيرهم ودعا بالسيف والنطع يهدده بالقتل فأعطى أبو نواس
عهداً ألا يذوقها مرة ثانية وأنشد يقول :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميما
فقال له المهدي : إن شربتها قال دمي لك حلال يا أمير المؤمنين فأطلقه
فكان أبو نواس يشمها ولا يشربها .

كما كان سليل اللسان بذىء الكلام قبيح السيرة مذموم الأفعال
والأعمال كثير الهجاء ، فهو لا يستعظم أحداً على الهجاء ، لهذا هجا
قريشاً في قصيدته التي يقول فيها :

أما قريش فلا افتخار لها إلا التجارات من مكاسبها
وأنها إن ذكرت مكرمة جاءت قريش تسعى بغالبها
إن قريشاً إذا هي أنتسبت كان لها الشطر من مناسبتها (٣)

(١) المزة - الشراب الذي طعمه ما بين الحلو والحامض أو خليطاً منهما .

(٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص ٢٩٥ .

(٣) الطبري - تاريخ الرسل ٥١٤ / ٨ .

فلما بلغ ذلك الرشيد أمر بحبسه فظل محبوساً حتى ولى المهدي وكان أبو نواس كثير المدح له فبعث إليه يقول :

تذكر أمين الله والعهد يذكر مقامى وأنشاديك والناس حضر
ونثرى عليك الدر يادر هاشم فيامن رأى دراً على الدر ينشر
أبوك الذى يملك الأرض مثله وعمك موسى عدله المتخير
فلما بلغ المهدي قوله أمر بإخراجه من السجن وخلقى سبيله وجعله من
ندمائه (١).

ولكن سرعان ما عاد إلى السجن مرة ثانية بعد أن هجا الخليفة المهدي بقوله :
ولا يطمعن فى ذاك منى طامع ولا صاحب التاج المحجب فى القصر
فبعث إليه المهدي وأحضره بين يديه وراح يسبه بأقبح السب والشتم ،
وشهد عليه سليمان بن أبى جعفر أنه من كبار الثوية .

فقال المهدي : هل يشهد بذلك شاهد ؟ فاستشهد جماعة فشهدوا عليه
فشهد بعضهم أنه شرب فى يوم مطير وكان قد وضع قدحه تحت السماء
ليقع فيه القطر ، وقال أبو نواس : يزعمون أنه ينزل مع كل قطرة ملك
فكم ترى أنى أشرب الساعة من الملائكة ثم شرب مافى القدح ، فأمر
المهدي بحبسه مع قوم كانوا يتهمون بالزندقة (٢) .

كان أبو نواس واسع الخيلة كثير المكر مع القدرة على دفع الشبهة عنه ،
فقد ظل بالسجن إلى أن مر عليه أحد المتعهدين بأهل السجن فقال له :
يا هذا أنت زنديق .. فقال أبو نواس : معاذ الله ، فقال له لعلك تعبد الشمس ،
فقال إنى أتجنب الجلوس فيها بغضاً لها ، فقال له لعلك تعبد الكبش ، فقال
لأننا آكله بصوفه ، قال فبأى جرم حبست ؟ فقال لأنى أنام خلف الناس (٣) ،
فسعى له الرجل عند الفضل ابن الربيع ليشفع له عند الخليفة بالعفو (٤) .

(١) الطبري - تاريخ الرسل ٥١٦/٨ . (٢) الجهشباري - الوزراء والكتاب ص ٢٩٦ .

(٣) كان أبو نواس من شذاذ الناس المنحرفين الغارقين فى الإباحية والغى والذين يعانون من المرض
المنحط الخبيث فهو يعشق الجمال فى الأنوثة والذكورة ويتغزل بالاثنتين معاً إلى درجة
كبيرة .

(٤) المصدر السابق .

ويذكر ابن كثير أن المهدي أحضر أبا نواس وقال له : أنت زنديق .. فقال
يا أمير المؤمنين لست بزنديق وأنا أقول :

أصلى الصلاة الخمس في حين وقتها وأشهد بالتوحيد لله خالصاً
وأحسن غسلني إن أصبت جنابة وإن جاءني المسكين لم أك مانعاً
وإنني وإن حانت من الكأس دعوة إلى بيعة الساقى أجبت مسارعاً
فلما انتهى من قصيدته أمر له الخليفة بجائزة (١) .

كما ينقل عنه تعلقه بجارية حسناء أفنى عمره في الحصول عليها فلم
يوفق في ذلك (٢) .

وبالرغم من دفع التهمة عنه بأنه زنديق فمع ذلك كان يردد قوله :
وقد ألقيت عنى ثياب الردى وخضت بحوراً من المنكر (٣)
وكان يقول :

يا ناظراً في الدين ما الأمر لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الندى تذكر إلا الموت والقبور
كل هذه الأشعار والأقوال المتضاربة والمتناقضة في الأمور كانت تصدر
عن أبي نواس عن عمد أو بغير عمد ، وهي أقوال كما تراها بعضها يدل
على ضعف عقيدته وقلّة الدين عنده وتدعو إلى الشك والريب في دينه ،
وبعضها الآخر يدل على إيمانه وصحة إسلامه مما جعل المؤرخون يختلفون
في الحكم عليه ويذهبون فيه كل مذهب .

فابن كثير يقول أنهم ذكروا له أموراً كثيرة ومجوناً وأشعاراً منكراً وله
في الخمريات والقاذورات والتشبيب بالمردان (٤) والنساء أشياء بشعة شنيعة ،
فمن الناس من ينسقه ويرميه بالفاحشة ، ومنهم من يرميه بالزندقة ، ومنهم
من يقول أنه يخرب على نفسه .. والأول أظهر لما في أشعاره ، فأما الزندقة

(١) ابن كثير - البداية والنهاية ٢٣٨/١٠ .

(٢) الأصفهاني - الأغاني ٤/٢٠ .

(٣) ديوان أبو نواس ، تحقيق المستشرق إيڤالد قاعور ١٦٣/٣ .

(٤) المردان - مفردا أمرد وهو الغلام الذي لم ينبت له شعر فهو أملس .

فبعيلة عنه ولكن كان فيه مجون وخلاعة كثيرة وقد عزوا إليه في صغره وكبره أشياء منكرة الله أعلم بصحتها (١).

ويرى البعض أنه لم يكن زنديقاً بالمعنى المعروف من حيث القول بالتناسخ وبالأتين وإباحة الفروج والأموال وتحليل الحرام وتحريم الحلال ، كما أنه في الوقت نفسه لم يكن مسلماً بحيث يرمى حرمة دينه ويطبق تعاليمه ، إنما كان مثالاً للمستهتر الفاسق ، ولهذا أباح لنفسه إتيان المنكرات على سبيل اللجون والمزاح (٢).

وإذا كانت الأعمال بالخواص من حيث الخير أو الشر ، فقد نقل عن أبي نواس قوله في مرضه الأخير :

تعاطمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك عظماً
ومازلت فاعفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منه وتكرما
ولولاك لم يقدر لابليس عابد وكيف وقد غوى صفيك آدمًا (٣)

ونقل عنه غير ذلك كثير ، وصفوة القول أن أبا نواس كان من جملة الشعراء المتهمين بالزندقة نظراً لإسرافه في الترف والشراب ومخالطة الغلمان وتعلقه بالنساء ، ومع ذلك فلم تتوفر الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي تقطع بالدلالة في الحكم عليه وقد يرجع ذلك إلى أن الأمور العقائدية تتعلق بالباطن فهي من السرائر ، وإن كانت الأعمال تدل عليها إلا أن الحكم فيها من الصعوبة بمكان .

ولهذا كان المتهم بالزندقة يختبر أمام الخليفة للتأكد من صحة ما نسب إليه وهذا الاختبار عبارة عن إظهار البراهين من ماني ومن مذهبه ويؤتى بصور ماني ويأمر الخليفة المتهم بالزندقة أن يتلوا عليها فإن أبوا قتلوا ، وكان أبو نواس ممن خضع لهذا الاختبار في عصر الرشيد بعد أن حامت حوله الشبهات وبلغ الرشيد أنه يعبث في صلاته ويمزح (٤) فأحضره وأحضر معه

(١) ابن كثير - البداية والنهاية ١٠ / ٢٤٠ .

(٢) طه حسن حماد - الزندقة في العصر العباسي ص ٢٠٢ .

(٣) ابن كثير - البداية ١٠ / ٢٤١ .

(٤) المسعودي - مروج الذهب ٣ / ٣٠٥ .

صاحب الزنادقة ، فقال صاحب الزنادقة للرشيد ويحك إنه وقع في نفسى منه شيء فامتحنه ، فخط له صورة مانى وأمره أن يبصق عليها ، فأهوى أبو نواس لبقىء عليها فقال صاحب الزنادقة : قلت لك يا أمير المؤمنين فأمر الرشيد بأن يؤدب ويطلق سراحه(١) .

وهذا يؤكد رأينا فى أبى نواس أنه كان فاسقاً فاجراً مستخفاً بأمر دينه فهو صورة سيئة للمسلم الضعيف ، أما الحكم عليه بالزندقة فليس لنا إلى هذا الحكم من سبيل لعدم توافر الأدلة التى تقطع بالحكم عليه .

الزندقة فى عصر المأمون (١٩٨-٢١٨هـ)

يعد الخليفة المأمون من أفضل الخلفاء العباسيين ومن أعقل الرجال وعظمائهم ، يصفه المؤرخون بأنه من أفاضل بنى العباس فى العلم والحكمة والحلم والفتنة والكرم(٢) .

ولهذا كانت أغلب أوقاته يقضيها فى مدارس العلم ومناظرة العلماء ، فهو يحب الكتب ويحب الفلسفة والجدل فى المسائل الدينية والقضايا الفقهية ويدعو إلى الحوار الهادىء والمناقشة البناءة المثمرة التى تطلب الحق وتدعو إليه وترغب فيه . كما كان يلجأ إلى الاقتناع فى الجدل والمناقشة مع المخالفين له من المتكلمين والزنادقة وغير المسلمين ، كما كان يقبل آراء المتناظرين إذا لم تتفق مع آرائه وميوله شريطة ألا تخرج عن حدود الشرع الحكيم .

ومن هنا اتخذ أسلوب الحوار والمناقشة مع الزنادقة والمرتدين فى عصره حتى يلزمهم الحجة وبعدها يرى فيهم رأيه .

يصرح المسعودى : أن المأمون بلغه خبر عشرة من الزنادقة ممن يذهبون إلى قول مانى ويقولون بالنور والظلمة من أهل البصرة ، فأمر بحملهم إليه بعد أن سموا له واحداً تلو الآخر فجاء الموكل بهم وقيدهم لينقل بهم إلى بغداد حيث مقر الخليفة ، فلما وصلوا وأدخلوا على المأمون جعل يدعوهم

(١) طه حسن - الزندقة فى العصر العباسي ص ٢٠٠ .

(٢) ابن طباطبا - الفخري فى الآداب السلطانية ص ٢١٦ ، وأبو حنيفة الدينورى - الأخبار الطوال

بأسمائهم رجلاً رجلاً فيسأله عن مذهبه فيخبره بالإسلام فيمتحنه ويدعوه إلى البراءة من ماني ويظهر له صورته ليتفل عليها ويتبرأ منه ، فمن أبي قطع بالسيف نصفين (١) .

وكان من شيم المأمون أنه كان لا يعاقب لمجرد الاتهام ، بل كان يدعو المتهم إلى ساحته ويناقشه في أفكاره وعقيدته وربما عرضت له شبهة أو التبس عليه أمر من الأمور وربما كان ضحية لمؤامرة ضده قام بنسج خيوطها شياطين الجن والإنس للإيقاع به عند الخليفة ، كان المأمون يضع في ذهنه كل ذلك ، ولهذا كان يحاور المتهم قبل إنزال العقوبة به ، وكان القتل نصيب من يصبر على الكفر والإلحاد .

دخل عليه مرتد ذات يوم كان من خراسان ، فقال له المأمون : لأن أستحيك بحق أحب إلى من أن أقتلك بحق ولأن أقبلك بالبراءة أحب إلى من أن أدفعك بالتهمة فقد كنت مسلماً فأخبرني ما الذي أوحشك مما كنت به أنساً من ديننا ؟ فإن وجدت عندنا دواء لدائك تداويت به وإن أخطأك الشفاء كنت قد أبلت العذر في نفسك ولم تقصر في الاجتهاد لها وقتلتناك بالشرعية فقال المرتد : أوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف في دينكم فقال المأمون : لنا اختلافان .. أحدهما اختلافنا في الأذان وتكبير الجناز و صلاة العيدين والتشهد والتسليم من الصلاة ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتاوى وما أشبه ذلك ، وهذا ليس باختلاف وإنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من السنة ، فمن أذن مثني وأقام مثني لم يأنم ومن ربح لم يأنم . والاختلاف الآخر : كاختلافنا في تأويل الآية من كتاب الله وتأويل الحديث عن نبينا مع اجتماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر فإن كان أوحشك هذا فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كما يكون متفقاً على تنزيله ولا يكون بين اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات ولو شاء الله أن ينزل كتبه مفسرة ويجعل كلام أنبيائه ورسله لا يختلف في تأويله لفعل ولكننا لم نر شيئاً من الدين والدنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طول البحث والتحصيل والنظر ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة وذهب التفاضل والتباين .

ولما عرف الحازم من العاجز ولا الجاهل من العالم وليس على هذا بنى الله الدنيا ، فقال المرتد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن المسيح عبد الله وأن محمداً صادق وأنتك أمير المؤمنين حقاً (١) .

هذا نموذج طيب للحوار النافع المفيد الذى حفظه لنا التاريخ الإسلامى ، إنه الحوار الهادى الهادف الذى يجمع الناس على اختلاف دياناتهم ويقرب بين وجهات النظر المختلفة والآراء المتعارضة للتوصل إلى حلول مرضية تكفل للجميع أن يعيش فى أمن وأمان ، مع إتاحة الحرية الدينية لغير المسلمين .

ونحن الآن وفى هذه الفترة الراهنة أحوج ما نكون إلى لغة الحوار الهادى البناء سواء كان هذا الحوار بين جماعة المسلمين أنفسهم أو كان بينهم وبين غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، فالحوار فى كل الاتجاهات نافع ومفيد .

وفى إطار محاور المأمون للزنادقة والملحدين وأهل الأهواء قال للرجل الثنوى الذى عنده ، وكان يحاوره ، قال له أخبرنى عن قولك بالاثنين .. هل يستطيع أحدهما أن يخلق خلقاً لا يستعين فيه بصاحبه ؟ قال نعم .. قال : فما تصنع بالاثنين ؟ واحد يخلق كل شىء خير لك وأصح (٢) .

وكثيراً ما لجأ المأمون إلى الحوار كوسيلة فى فض النزاع أولهداية ضال أو إرشاد حائر ، والحوار أنفع ما يكون فى القضايا الشائكة والتي يكون الفصل فيها من الصعوبة بمكان ، ومن الحوارات التى فصل فيها المأمون بحكمة وفطنة حوار دار بين مسيحي ومسلم ، فلما رفع إليه هذا الحوار أمر بإحضار كل من المسلم والمسيحي وقرأ كل منهما رسالته عليه ولم يزل صامتاً حتى انتهى كل منهما من حديثه. ثم قال أما النصرانى فلا حجة لنا عليه لأن الأمر لو لم يكن عنده هكذا ما قام على دينه والدين دينان .. أحدهما : دين الدنيا ، والآخر : دين الآخرة ..

أما دين الدنيا فدين المجوس وما جاء به زرادشت ودين الآخرة فهو دين

(١) الجاحظ - البيان والتبيين ٣/ ١٥٨ ، وابن عبد ربه - العقد الفريد ٢/ ١٣١ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ٢/ ١٣١ .

النصارى وما جاء به المسيح عليه السلام . وأما الدين الصحيح فهو التوحيد الذى جاء به صاحبنا محمد ﷺ فإنه الدين الجامع للدينا والآخرة (١) .

وقد أثمرت هذه المناظرات والحوارات التى كان يعقدها المأمون فى حضرة العلماء فقل الزنادقة وأصحاب الأهواء والملحدة فى عصره ونذر وجودهم فلم يتهم بالزندقة فى عصره إلا اثنين .. الأول يسمى أبو على والآخر يزدان بخت .

أما أبو على هذا فقد ناظره المأمون بنفسه حتى أقام عليه الحجة والدليل على بطلان ما هو عليه ثم تركه (٢) .

ثم قام باستدعاء (يزدان بن بخت) من الرى بعد أن أمنه على نفسه ، فلما حضر بين يدى المأمون وحاوره المتكلمون حتى سكت ، فقال له المأمون أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك إياه من الأمان لكان لنا ولك شأن ، فقال له يزدان بخت : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك لست ممن يجير الناس على ترك مذاهبهم ، فقال المأمون أجل وكان أنزله بناحية المحرم ، فوكل به حفظة يحمونه من الغوغاء حتى يصل إلى بلده (٣) .

أما لماذا ترك المأمون هذين الزنديقين بدون عقاب بعد أن أقام عليهما الدليل على بطلان ما يعتقدون .

ففى رأينا أن هذا التصرف يرجع إلى تقدير المأمون للأمان الذى منحه لهما قبل استدعائهما إلى ساحته والوفاء بالوعد من أخلاق الصالحين .

الزنادقة فى عصر المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ)

ليس من شك أن الزنادقة قد تفتت وانتشرت خلال العصر العباسى الأول حتى أصبحت ظاهرة واضحة للعيان ، ويرجع ذلك كما سبق أن أشرنا إلى وجود العناصر الفارسية التى سيطرت على أكثر منافذ الحكم والإدارة فى عصر الفرس قديماً ثم ظهرت بعد ذلك المانوية بكل فرقها ، فلما جاء

(١) القسيس جورج تركار - حوار مسيحي ومسلم ص ٢٢ .

(٢) الجاحظ - الحيوان ٤/ ١٣٢ ، وابن عبد ربه - عيون الأخبار ٢/ ١٣٢ .

(٣) ابن النديم - الفهرست ص ٤٥٨ .

المعتصم كانت الدولة تموج بالفتن والقلاقل والأخطار تحيط بها من كل جانب وذلك بسبب نشوب كثير من الحركات الثورية الهدامة التي قام بها الفرس في خراسان وأذربيجان وغيرها ، وكان أشد هذه الحركات قوة وأكثرها خطراً الحركة الخزمية التي تزعم قيادتها بابك الخرمي والتي تُعد حلقة في سلسلة العداء الذي كانت تضمه الفرس للعرب عامة وللإسلام بصفة خاصة ، وماكاد المعتصم ينتهي من هذه الحركة البغيضة حتى أسلمته الأقدار إلى التصدي لمؤامرة أشد وأعنف من سابقتها وهي مؤامرة الأفشين^(١) قائد جيوش المعتصم ورأس الزنادقة ومحرك الفتن ومنبع الثورات التي قامت في جسم الدولة العباسية آنذاك ، ولهذا أطلق المؤرخون على عصر المعتصم عصر فتوح وحروب^(٢) .

إلا أن العمل الذي أُرهب الزنادقة في عصر المعتصم وأجأهم إلى التستر والاختفاء هو كشف مؤامرة الأفشين وتقديمه للمحاكمة في محكمة علينية أمام رجال الدولة جميعاً والتي انتهت بسجنه ثم قتله وحرقة مع أصنامه التي يتقرب إليها من دون الله عز وجل وكان ذلك في عام ٢٢٦ هـ^(٣) .

الزنادقة في عصر الوائق (٢٢٧، ٢٣٢ هـ)

انتقل الزنادقة في عصر الوائق من طور الخفاء والتستر إلى طور الظهور والعلانية ، فبعد أن كانوا مستترين في عهد المعتصم بسبب ما أنزله برؤسائهم من البطش والعقاب عادوا إلى الظهور مرة أخرى وأخذوا في الكيد للإسلام وأهله ، إذ لم يكن الوائق مثل أبيه في القوة والبأس ولا في تعقب الزنادقة وأهل الأهواء ، إذ كان مثل عمه في الشغف بالعلم والحكمة ، والوقوف على آراء العلماء والحكماء ومناظرتهم ، وكان عادلاً في رعيته متشدداً لآراء المعتزلة من حيث القول بخلق القرآن إلى حد أنه قتل أحمد بن نصر بن

(١) انظر مؤامرة الأفشين الفصل الثالث من الباب الثالث من هذا الكتاب .

(٢) ابن طباطبا - الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٢٩ .

(٣) انظر الملحق رقم ١ .

مالك لأنه لم يوافق على القول بخلق القرآن (١) ، والصحيح أنه غير مخلوق (٢) .

بدأ الزنادقة في الإفصاح عن مكنون أنفسهم في عصر الواصل وأخذوا في إذاعة أفكارهم الهدامة وعقائدهم الفاسدة التي تبيح المحرمات وتعبث بالآداب والقيم الإسلامية وتعرض الحياة للإتهيار .

ومن بين الزنادقة الذين صرحوا بآراء فاسدة وخطيرة (أحمد بن خابط) القدرى الضال المضل الذي قال بالتاسخ وزعم أن للخلق ربين وخالقين .

أحدهما : قديم وهو الله سبحانه ..

والآخر : مخلوق وهو عيسى بن مريم .

وزعم أن المسيح ابن الله على معنى دون الولادة ، كما زعم أيضاً أن المسيح هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة وهو الذي عناه الله بقوله ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، وهو الذي يأتي في ظلل من الملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ، وهو الذي خلق آدم على صورته نفسه وذلك تأويل ما روى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ، وزعم أنه هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله « ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » (٣) ، وغير ذلك من الضلال والكذب والتأويلات الباطلة الفاضحة التي نقلها عنهم أئمة الملل والنحل لمعرفة ضلالهم وسفاهة عقولهم (٤) .

وكان أحمد بن خابط وفضل الحديثي من أصحاب النظام في الاعتزال (٥) وقد أطلعا على كتب الفلاسفة ، وزاد في ضلال هذين الزنديقين أنهما أضافا

(١) السمودي - مروج الذهب ٧٦/٤ ، والطبري - تاريخ الرسل ، والسلوك - ...

(٢) انظر الإبانة عن أصول الديانة - لأبي الحسن الأشعري ٦٣/١ تحقيق : فوية حسين - دار الأنصار ط. أولى سنة ١٩٧٧ م .

(٣) أخرجه الإمام البخاري في تفسير سورة ق ١٧٤/٦ .

(٤) البغدادي - الفرق بين الفرق ص ١٦٦ ، والشهرستاني - الملل والنحل ٦٦/١ .

(٥) النظام هو إبراهيم بن يسار بن هانيء النظام ، سمي بذلك لأنه كان ينظم الحرز في سوق البصرة وهو شيخ الجاحظ ، قرر مذهب التلافة في القدر وأطلع على كتبهم ونقل مذاهب الثوية وبدع التلافة وشبه الملحدين في دين الإسلام ، وتوفي سنة ٢٣١ هـ .

إلى مذهب النظام ثلاث بدع :

الأولى : أثبات حكم من أحكام الإلهية في المسيح عليه السلام موافقة للنصارى على اعتقادهم الفاسد أن المسيح هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة .

الثانية : القول بالتناسخ فزعموا أن الله تعالى أبدع خلقه أصحاء سالمين عقلاء بالغين في دار سوى هذه الدار التي هم فيها اليوم وخلق فيهم معرفته والعلم به وأسبغ عليهم نعمه ، فمن أطاعه في الكل أقره في دار النعيم ومن عصاه في الكل أخرجته من تلك الدار إلى دار العذاب وهي النار ، ومن أطاعه في البعض وعصاه في البعض أخرجته إلى الدنيا فألبسه هذه الأجسام الكثيفة وابتلاه بالبأساء والضراء والشدة والرخاء .

الثالثة : حملهما كل ما ورد في الخبر من رؤية الباري عز وجل على رؤية العقل الأول الذي هو أول مبدع^(١) .

فهذان الكافران قاما بمزج كلام الفلاسفة والمعتزلة والقائلين بالتناسخ .

يقول الإمام البغدادي : قد شارك هذان الكافران الثنوية والمجوس في دعوى خالقين وقولهما شر من قولهم لأن الثنوية والمجوس أضافوا اختراع جميع الخيرات إلى الله تعالى وأضافوا الشرور إلى الظلمة والشيطان ، بينما أضاف ابن خابط والحديثي فعل الخيرات كلها إلى عيسى بن مريم حتى محاسبة الخلق في الآخرة .

كل هذه الضلالات قال بها هذا الزنديق الكافر وطارت أخباره إلى الخليفة الواثق الذي عهد إلى ابن أبي دؤاد المعتزلي بمحاكمته للوقوف على حقيقة الأمر ، ولكن الموت عاجله سنة ٢٣٢ هـ ، قبل محاسبته .

ثاني الذين رموا بالزندقة في عصر الواثق هو أبو عيسى الوراق وتلميذه ابن الراوندي ، أما أبو عيسى الوراق فقد صرح ابن النديم بزندقته إلا أنه كان يظهر الإسلام من باب التقية^(٣) .

وقد ذكر ابن الجوزي أن أبا عيسى الوراق وابن الراوندي كانا يتوافقان على

(١) الشهرستاني - الملل والنحل ١/٦٦ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٦٦ .

(٣) الفهرست ص ٤٥٨ .

الطعن في القرآن ويدعان عليه التناقض وعدم الفصاحة (١) .
ومن الزنادقة الملحمة ابن الراوندى الذى كان ملازماً للرافضة وأهل الإلحاد
فإذا عاتبه أحد من الناس فى ذلك اعتذر بأنه يريد أن يعرف مذاهبهم (٢) .
ويؤكد البغدادي .. أن الراوندية من الروافض الحلولية التى قالت بتناسخ
روح الإله فى الأئمة حسب زعمهم (٣) .

ولابن الراوندى عدد من المصنفات التى كتبها بهدف النيل من الإسلام
والطعن فيه من بينها كتاب سماه (اللامع) زعم أنه يدمغ به هذه الشريعة
فسبحان من دمغه فأخذوه وهو فى شرح الشباب ، وكان يعترض على القرآن
ويدعى عليه التناقض وعدم الفصاحة وهو يعلم أن فصحاء العرب تحيرت
عند سماعه فكيف بالألكن (٤) .

وقد صرح الإمام الأشعري بأن :

ابن الراوندى على صلة كبيرة بالرافضة ، إذ كان ملازماً لهم فى أغلب
أوقاته ، وقد جهر بعداوته للإسلام عندما تصدى للتأليف والكتابة لنصرة
الثنوية والدهرية بغية الحصول على المال والنيل من الدين الإسلامى ، وقد
صرح الإمام الأشعري بأن ابن الراوندى وأبا عيسى الوراق قد ألفا كتاباً فى
الإمامة للرافضة (٥) .

ومن الكتب التى صنفها ابن الراوندى كتاب الزمرد وكتاب التاج فى الرد
على الموحدين وكتاب نعت الحكمة فى تقوية القول بالاثنين وكتاب الدافع
فى الرد على القرآن وكتاب الفريد ويتضمن الطعن فى بلاغة القرآن وفى
معجزات الأنبياء وكتاب الإمامة ويتضمن الطعن على المهاجرين والأنصار ،
وغيرها كثير وكلها تنضح بالكراهية للإسلام والطعن فيه (٦) .

(١) المنتظم ٩٨/٦ .

(٢) ابن الجوزي - تليس يليس ص ١١١ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ١٦٣ .

(٤) ابن الجوزي - تليس يليس ص ١١٢ .

(٥) مقالات الإسلاميين ص ١٣١ .

(٦) ابن الجوزي - المنتظم ٧٨/٦ . أبو العلاء المعرى - رسالة الغفران ص ٢٤٤

وكم من زنديق فى قلبه حقد على الإسلام خرج فبالغ واجتهد فزخرف دعاوى يلقى بها من يصحبه وكان غور مقصده فى الاعتقاد الإنسال من ربة الدين وفى العمل نيل الملذات واستباحة المحظورات .

يبد أن تتبع سيرة ابن الراوندى علم أنه على جانب عظيم من الإحاد والزندقة ، وذلك واضح بين بحيث لا يخفى هذا الأمر على الناظر العابر ، فضلاً عن الفاحص المتأمل .

ويعهد ..

فإن ظاهرة الزندقة التى ظهرت على الساحة الإسلامية بسبب شيوع الأفكار الهدامة والمعتقدات الفاسدة كانت من أشد وأعنف ما تعرض له المسلمون فى العصر العباسى الأول ، والحق أن هذه الظاهرة كان لها ضحايا كثيرون من الشعراء والكتاب والعلماء اتهموا بها وهم منها ابراء ، كما كان لها أنصار يروجون لها فى كل مكان وكان عامة المناصرين لها كانوا فرسناً وهذا أمر طبيعى لأن الزندقة ترجع فى الأصل إلى المعتقدات الدينية الفارسية من مجوسية ومانوية ومزدكية ، ولهذا كان وجودها بين العرب نادراً .

* * *